عزيزى القارئ تحية طيبة و بعد....

ارجو منك فضلا و ليس امرا ان ترسل الى تقييمك لهذا العمل المتواضع عبر احد هذة الحسابات و اتمنى ان تحظى كتاباتى على اعجابك دمت بخير.....

- https://www.facebook.com/%D8%A7%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%AD%D8%B3%D9%86-_-Ahmed-Hassan-105681304607541/
- ***Ahmedhassan15891@gmail.com***

_____

" بسم الله الرحمن الرحيم "

(هروب و عودة)

المدينة : القاهرة .

التاريخ : اغسطس 2005.

اليوم : الاثنين .

عندما دقت ساعة يده الثانية صباحا ,* ارتدى حقيبة ظهره و بدأ يسير على رؤوس اصابع قدمه مثل لاعبات الباليه , مهتديا بالاضاءه الصفراء الخافته المنبعثه من لمبة دورة المياة , لكنه كان يلتفت حوله مثل لص قام للتو باقتحام احدى منازل الغرباء , ظل يمرر بصره بين الغرف حتى وصل عند باب الخروج , الخشبى ذو اللون البنى الداكن , و عندما هم على معالجته بواسطة احدى المفاتيح المعلقه - داخل سلسلة تضم مفتاحان و صليب خشبى صغير الحجم , توقف فجأة

و امتعض وجهه , ثم صفع ناصيته الصغيرة بـ كفه الايمن دون ان يصدر صوتا , ثم دولف الى احدى الغرف فى هدوء , بعدما القى نظرة طمأنته انه لا احد يقظ سواه , قام بدس يده داخل درج الكومود القابع بجوار فراش غير مرتب , و بعض الملابس الملقاه على جانبيه , مما يدل على عدم وجود امرأة فى ذلك المنزل , ثم اخرج رزمتى من النقود قام بوضعهما فى جيب سرواله , و عند مغادرته الغرفة اوقفه صوت طقطقة مفاصل الفراش - الذى يرقد عليه والده , كتم انفاسه سريعا و تجمد جسده و سالت بعض قطرات العرق فوق جبينه , مثل لوح ثلج يحاول مقاومة حرارة الشمس , و بعد قليل عندما تأكد من ان الامر على ما يرام , شهق و ظفر فى هدوء و بدأ يسير

فى بطئ شديد , ثم توقف و صوب نظره مرة اخيرة الى الغرفة المغلق بابها , ثم ذهب الى باب الخروج من جديد , لكن هذة المرة انحنى بحذر حتى استطاع حمل حذاءه , ثم عالج باب الخروج بهدوء تام - ثم اغلقه بحذر شديد , حتى لا يصدر صوتا و نجح بالفعل , ثم استأنف السير بنفس الطريقة البهلوانية حتى مر عبر بوابة المنزل الحديدية الصغيرة الصدأه , ساعده كثيرا فى الفرار انه يقطن فى الطابق الارضى , مما جعل المسافة قصيرة و اقل مجازفة , قام بارتداء حذاءه عندما اطمئن انه اصبح بالخارج و ليس هناك من يتتبعه , كان الظلام يخيم على المكان الا من ضوء القمر الذى انعكس فوق زجاج ساعة يده - اثناء قيامه بعمل انشوطه لرباط حذاءه , مما جعله ينظر

اليه بتمعن للحظة , ثم بدأ يسير بطريقة طبيعية بين البنايات القديمة , التى تدل على ان ذلك الحى واحدا من الاحياء الشعبية الفقيرة التى تنتشر فى القاهرة بكثرة , عندما ابتعد قليلا توقف ثم دس يده فى جيبه و اخرج النقود , ثم قام بسحب عدة ورقات من فئة العشرون جنيها وضعها فى جيب سرواله , ثم أعاد المال الى حقيبة ظهره , ثم قام بسحب لفافة تبغ من العلبة الموضوعة داخل الحقيبة و اشعلها , ثم اغلق حقيبته و بدأ يتوغل فى الظلام , حتى اصبح يسير فوق الطرقات الرئيسية حيث الضوء فى كل مكان ؛ بدأت ملامحه فى التباين , قصيرا هو كما يليق بعمره لا يتخطى طوله ال 130 سم , يملك عينان بلون النباتات , و خصلات شعر قصير لونه مائل الى

الاصفرار , وبشرة اوروبيه , و انف صغير , و شفتان غليظتان تتوارى خلفهما صفوف من الاسنان التى تحتاج الى اخصائى تقويم ؛ اثناء سيره رأى احدهم قادم من نهاية الطريق الذى يسير به , لم يستطيع تحديد ملامحة لكنه خشى ان يكون احد جيرانهم , كانت المسافة التى بينهما كافية للتخلص من السيجارة القابعة بين اصابع يده الصغيرة , التى لا تليق بطفل فى مثل عمره , ثم بدأت تقل خطواته و تزداد ضربات قلبه , كان يفكر ماذا سيحدث ان كان الشخص القادم يعرفه و يعرف والده ؟ , بالطبع سوف يأخذه من يده ليعيده الى المنزل , و سوف ينال عقابا شديدا على فعلته هذه , لكنه قرر ان يتجاهل تلك المخاوف لكى يتدبر امره , ثم حاول جاهدا ان يحصل

على حيلة ما تجعله يتخطى تلك العقبه - اذا كان ذلك الشخص القادم يعرفه , و ان كان لا يعرفه فسوف تصبح كل هذة الافكار ليست الا سراب فى ذهنه , ظل سائرا حتى اتضحت الرؤية , كان رجل فارع القامة ذو ملامح لا تنطبع فى ذاكرتك , اهتز من الداخل عندما اقترب الرجل مضيقا حدقتى عينه , ثم قال متعجبا بعدما انعقد حاجبيه :

_ عادل !

_ ازيك يا عم محمد .

قالها محاولا ان يظهر متماسكا .

_ الحمد لله يا حبيبى , انت ماشى لوحدك ليه ؟ , و رايح فين فى ساعة زى دى ؟

ابتلع ريقه دون ان يلمحه الرجل , ثم قال بهدوء مصطنع :

_ ابدا , اصل طالع رحلة مع عمتى .

انعقد حاجبى الرجل مرة اخرى , و تسائل :

_ هى فين عمتك دى ؟

_ مستنيانى , هى و قرايبنا كلهم على المحطة .

_ بس انا مشفتش حد هناك .

_ اكيد مأخدش بالك , هما كلمونى على تليفون البيت حالا , و قالوا انهم هناك فى الاتوبيس .

_ طيب هوصلك .

_ لا , شكرا يا عم محمد , متقلقش عليا .

_ طيب خلى بالك من نفسك .

_ حاضر .

قالها و انصرف دون ان ينظر خلفه , لقد تجمدت دماءه فى تلك الدقيقة المفزعه ؛ بعد قليل كان يشير الى الكهل الذى يقود احدى سيارات الاجرة (الميكروباص) , متسائلا اياه :

_ رمسيس يا عمو ؟

_ اركب يابنى .

صعد الى السيارة و هو يشعر بالخوف , وقف السائق لـ بعض الوقت منتظرا ربما يجد اشخاص اخرون , لكن لم يظهر احد فـ بدأ بالتحرك , ناوله عادل الاجرة ثم ظل جالسا يترقبه فى صمت , يروادة هاجس ان ذلك الرجل سوف يقوم باختطافه و قتله , بل و سيقوم بنزع احشاءه و سرقة اعضاءه و اشياء من هذا القبيل , توقفت هذة الهواجس و بدأ

يشعر بالاطمئنان , عندما بدأت العربة تمتلئ بالركاب تدريجيا , كان يراقب كل شئ يمر خلال محيط نظره عبر النافذة الزجاجية المتسخة , السيارات , الاشجار , المارة , المتاجر , الاضواء فى كل مكان , القمر الساطع فى الافق , الذى يظن مثلما كنا جميعا نظن و نحن صغارا انه يتتبعه .

_ حمد الله على السلامة , يا حضرات .

قالها السائق معلنا عن الوصول , فتوقف عن شروده , و ترجل من العربة حاملا حقيبته , ثم بدأ يسير دون ان يعلم الى اين سيذهب , حتى سمع احدهم يصيح بصوت متحشرج قائلا :

_ نفر اسكندرية , نفر اسكندرية .

وجد نفسة يصعد الى السيارة دون

تفكير , لم يكن هناك مكان فارغ سوى كرسيا واحدا فى مؤخرة العربة , و فور جلوسه بدأ السائق فى التحرك قائلا :

_ الفاتحة يا جماعة , عشان نوصل بالسلامة .

كما تعلم نحن شعب متدين بطبعه ؛ كانت تجلس بجانبه امرأة فى عقدها الرابع , تصطحب ابنتها التى فى مثل عمره , لم يغفل له جفن طوال الطريق , ظل يراقب الام فى صمت و هى تحتضن ابنتها النائمة , و تمرر اصابعها بين خصلات شعرها المجدول , لم يستطيع التماسك تساقطت الدموع من عينيه سريعا , عندما تذكر والدته الراقدة فى قبرها بسلام , و حنانها و حبها التى كانت تقدمهما له من قبل ان يأخذها الموت , و

تتركه اسير فى قبضة هذا الطاغى المدعو ابيه , كم ان فقدان الام شئ مؤلم للغاية لا يستطيع تحمله كبيرا او صغيرا , من فقد امه كمن فقد وطنه لا يمتلك الملجأ الذى يفر اليه لـ يمتص احزانه و يمنحه الامان .

مدينة الاسكندرية :

بعد مرور ثلاثة ساعات توقفت السيارة و اعلن السائق انتهاء الرحلة , ترجل من السيارة ثم نظر الى ساعة يده التى اعلنت السادسة صباحا , بدأ يسير بين الشوارع التى تعج بالبشر من جميع

المحافظات , انه فصل الصيف الذى لا يكتمل الا بزيارة البحار و الشواطئ ؛ بعد مرور بعض الوقت توقف امام احدى محلات الطعام عندما شعر بالجوع الشديد , و اثناء انتظاره لاستلام وجبته ؛ فجأة تجمد جسده مثل شجرة قوية لا تستطيع الرياح مداعبتها , و تفشى داخله الهلع عندما سمع احدهم يصيح مناديا :

_ عادل , يا عاااادل .

التفت بعد بضع ثوانى و قلبه يكاد ان يثب من داخل صدره , فوجد رجل اربعينى اسمر اللون , يضع يده اليمنى فوق رأس فتى يكبره بـ عامان تقريبا , و يتحدث اليه بمنتهى السلاسه و الاحتواء .

_ ايه يا عادل , بنادى عليك كنت فين ؟

_ اسف يا بابا , كنت واقف بره

مسمعتكش .

هنا وضع يده تجاه قلبه و زفر فى هدوء , لكن فضوله جعله يتابع حديثهما , ربت الرجل فوق وجنتى الصبى ثم قال مبتسما :

_ ولا يهمك يا حبيبى , تاكل ايه ؟

اجاب الطفل فى رضا

_ اى حاجه .

_ الى تحبه انت و تختاره .

قالها الاب , اعتلت شفاه عادل ابتسامة مؤلمة , كم تمنى ان يحظى بــ أب حنون مثل ذلك الرجل ؛ بعد قليل كان يتناول طعامه داخل احدى الشواطئ حيث الزحام و الضوضاء المستمر , هذا هو افضل مكان بالنسبة له , عندما تريد ان

تتخلص من شعورك بالوحدة - كل ما عليك فعله هو ان تفر الى الزحام لكى تذوب وسط البشر , كان يراقب كل شئ بعيون طفل يستكشف الحياة للمرة الاولى , ادهشه مشهد لسيدة مسنة كفيفة , يحملها اولادها لكى تلامس مياة البحر باقدامها , و احزنه طفل قام والده بصفعه ففر هاربا الى احضان امه , و اضحكه رجل ريفى يركض باقصى سرعة ليركل كرة قدم فتعثر فى ذيل جلبابه , بعد لحظات استلقى فوق الرمال مستظلا باحدى الشماسى , ظل يتأوب حتى غلبه النعاس و بعد عدة ساعات استيقظ مفزوعا , عندما اصطدم به شيئا ما , اكتشف انها كرة سكواش يلهو بها بعض الشباب , و عندما نظر الى السماء وجد ان الشمس اوشكت على الغروب ,

انتصب واقفا ثم ازال الرمال المتناثرة فوق ملابسه , ثم قرر ان يغادر الشاطئ , ظل يجوب الشوارع و هو يدخن النيكوتين بـــ شراهة , و يترقب الجموع الغفيرة من البشر , و السيارات المارة , والكافيهات , و المطاعم المنتشرة بكثرة , و تختلط فى اذنه الاغانى من كثرتها و اختلافها فى وقت واحد , كان يشعر بالضياع , يتمنى لو انه لم يغادر منزله ؛ حتى سمع صوتا غليظ يأتى من نهاية الشارع المظلم الذى مازال فى بدايته , يصيح بخشونه و غضب تكفلا ببث الهلع بداخله .

_ امـــــــسك الواد ده .

_ اوعى يهرب منك .

عندما امعن النظر علم ان مصدر الصوت هو شرطى عريض المنكبين ذو شارب

كث , يقوم بمطاردة شاب اسمر يركض و يتقافز مثل غزالة تفر من الاسد الصياد , ذو لحية كثيفة و وجه يدل على اجرام صاحبه دون جدال , و هناك ايضا مخبر حاد الملامح تغزو التجاعيد وجهه , يحاول الامساك بهذه الغزالة البائسة .

_ خد يا ابن الـ..... .

كان رد فعله مؤلما و سوف تتكفل ذاكرته بالاحتفاظ به مدى الحياة , سال بوله دون ارادته ليغرق ما بين فخذيه و يخلف اثار البقع فوق سرواله , كان المشهد كفيل بافزاعه الى الحد الذى جعله يركض هاربا دون ان يعى الى اين هو ذاهب , ظنا منه انهما سيقومان بالامساك به هو ايضا , حتى وجد نفسه داخل المكان الذى لم يتخيل انه سيقوم

بزيارته فى يوما ما , جحظت عيناه عندما ادرك انه داخل احدى بيوت الله , حاول ان يلتقط انفاسه و كان نهده يعلو و يهبط نتيجه ركضه باقصى ما يملك , امعن النظر فى المصلين الذين يصطفون فى نظام , يستمعون الى صوت الامام الذى يتلو احدى ايات القران الكريم , و عندما هم على الخروج وجد امامه كهل ذو لحية بيضاء و اثار السجود تبرز فوق جبينه , تسائل الرجل بصوتا خافت :

_ رايح فين يابنى ؟

تردد لحظه , ثم اجاب بعدما انحنى فوق حذاءه محاولا فك الانشوطه .

_ هخلع الكوتشى بره .

_ انت متوضى ؟

هكذا تسائل الرجل .

_ ا ن ا , ا ه , لا .

تلعثم و كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه متقطعه مثل انفاسه , ابتسم الرجل ثم قال :

_ طيب يلا نتوضى سوا .

وضع عادل حذاءه فى الخارج تحت انظار الرجل الذى يتابعه باهتمام , فى هذه اللحظه بخل عقله عن تقديم حلا واحدا لذلك المأزق , لم يستطيع فعل شئ سوى اتباع ذلك الكهل , فى صمت و قلق و توتر و تردد يصاحبهم خوفا يسرى فى جميع اوردته , اتبعه الى دورة المياة و هو يقدم قدم و يأخر الاخرى , و تمنى فى هذة اللحظة ان تنشق الارض و تبتلعه ؛ فور وصولهما و دون ان ينبث ببنت شفة دولف فورا الى الحمام , اغلق الباب و

ظل يصفع جبينه بكلتا يديه , و يعتصر عقله كى يصل الى حلا لكن عقله لم يستجيب , فكر فى الفرار عبر النافذه الصغيرة ذات الحديد الصدأ الذى وجدها بالداخل , لكن هناك قضبان لن تمكنه من التخطى , فكر فى القفز عبر الحائط الذى يفصل بين دورات المياه لينتقل الى حمام اخر , و يفر دون ان يلمحه الرجل مثلما يهرب المساجين فى الافلام القديمة , لكن قصر قامته لن يسمح له بذلك , حتى توصل الى حلا مناسبا , و هو ان يظل بالداخل حتى يمل الرجل من انتظاره و يغادر دورة المياة , قرر استغلال ذلك الوقت فى الاغتسال من البول الذى اغرق سرواله و تبديله بأخر , و عندما فتح الباب صعق عندما وجد الرجل مازال فى انتظاره .

_ الامام سلم , فقولت استناك , نصلى مع بعض جماعه .

لم يفهم حرفا , لكنه اكتفى باظهار ابتسامة زائفه , انعقد حاجبى الرجل عندما وقع نظره على حقيبة ظهره , و تسائل :

_ ليه مسبتش شنطتك بره ؟

_ ما هو , ا ص ل , ن س ي ت .

_ مش مشكلة , يلا اتوضى .

قالها الرجل و هو يشير الى صنابير المياه المتراصه بدقه بجانب بعضها البعض , قام عادل بمعالجة احدهم فبدأت المياه تتدفق , بدأ بغسل كفيه ببطئ شديد و هو يرتجف و لا يعلم ما هى الخطوة التالية , ثم القى نظرة على الرجل داعيا الله ان يكن غادر , فوجده ينظر اليه بثبات فقام

بغسل وجهه , هنا قال الرجل مبتسما :

_ متتكسفش , كلنا بنتعلم , تسمحلى اعلمك الوضوء الصحيح , انا برضو زي ابوك .

احمرة وجنتيه فورا , و اومأ برأسه ايجابا ؛ بعد قليل اقام الرجل الصلاة , بينما عادل كان يقف وسط ثلاثة رجال اخرين , قد تأخروا ايضا عن موعد الصلاة فأنضموا اليهما , كان العرق يتساقط عن جبينه .

_ الله اكبر .

قالها الكهل معلنا بدأ الصلاة , مرر عادل نظره بين يمينه و يساره , فوجد الجميع يضع كفيه فوق صدره , فقام بتقليدهم , بدأ الرجل فى تلاوة الفاتحة و تبعها باحدى الايات الصغيرة , و الاخر يشعر بأن جسده قد تصلب , صاح الرجل مكبرا فـ

ركع الجميع , تردد قليلا ثم انحنى راكعا قابضا يديه فوق ركبتيه , مثلما فعل الرجال جواره , و ظل يسترق النظر من بين فخذيه لكى يتفحص المكان من خلفه بانعكاس كامل للرؤية , عسى ان يكون الجميع غادر فتكن فرصة مناسبة للفرار , لكنه رأى احدهم يجلس ممسكا بسبحته بين اصابعه يسبح بها , و اخر يقرأ فى المصحف , و رجل يقوم بتأدية صلاة السنة , فتأكد ان الفرار اصبح محال .

_ سمع الله لمن حمده .

انتصب مثلهم .

_ الله اكبر .

فقام بملاحقتهم بالركوع بعد ثوانى من التردد و عدم الاستيعاب , و استمر على ذلك المنوال حتى اعلن الرجل عن انتهاء

الصلاة .

_ السلام عليكم و رحمة الله و بركاته , السلام عليكم و رحمة الله .

اعتدل الكهل فى جلسته لكى يكون فى مواجهته , ثم قال مبتسما :

_ تقبل الله يا بنى .

لم يدرى ماذا يقول فمارس ابتسامته البلهاء , ربت الرجل فوق كتفه الايسر ثم اردف :

_ ربنا يهديك يا حبيبى , انت اول مرة تصلى صح ؟

_ اه .

_ انت اسمك ايه ؟

اجاب بعد تردد

_ عادل .

_ ساكن فين يا عادل ؟

_ فى القاهرة .

_ اكيد جاى مع عيلتك تصيفوا .

_ ا ي و ه .

_ انت ابن حلال , و ربنا هيكرمك لو حافظت على صلاتك .

طأطأ رأسه ثم اجاب

_ ان شاء الله .

_ ابوك بيصلى ؟

تعثر قليلا حتى اجاب

_ امممم..... لا .

_ طيب قوله يا بابا , عايزك تاخدنى المسجد نصلى سوا كل يوم , عشان ربنا يرضى علينا و ندخل الجنة .

_ حاضر , بعد اذنك انا همشى , عشان اتأخرت .

قالها بنفاذ صبر , لكنه لازال محتفظا بابتسامته .

_ اتفضل يا حبيبى .

عندما هم على حمل حقيبته , قام الرجل بمناداته :

_ عادل .

عندما التفت , اشار اليه ان يقترب , دنا منه بحرص مثل فأر يخشى الوقوع داخل المصيدة , فطبع الرجل قبله بين عينيه داعيا له بأن يحفظه الاله , غادر المسجد فورا و هو ينتابه شعور السجين الذى حصل على الافراج بعد عدة سنوات , ثم قال فى قرارة نفسه , " سوف يجن ابى اذا علم بزيارتى لاحد مساجد المسلمين ,

لكن ذلك سيكون هين مقارنة بمعرفته بانني قمت بما يسمى الوضوء ثم الصلاة بينهم , على الارجح سوف ينضب قلبه و يتوقف عن العمل مدى الحياة , لكنه هو من تسبب فى ذلك فــ ليجنى ثمار قسوته على " ؛ ثم استأنف السير بعشوائيه بين الشوارع و الازقه , لا يعلم وجهته مثل طائر وحيد قد تخلف عن السرب , يحاول بشتى الطرق ان يتغلب على شعوره بانه اخطأ عندما غادر منزله , و انه لا يتحمل مواجهة العالم وحده , لكنه مصر على اقناع نفسه بانه مثل طائر الوروار الشرقى الذى لا يخشى الصخب من حوله ؛ توقف لحظة قام فيها باشعال لفافة تبغ جديدة , فشعر بيد تربت فوق كتفه من الخلف , عندما التفت وجد صبى فى مثل عمره , يرتدى ملابس بالية شديدة

الاتساخ , عجز عادل عن التحدث كمن ابتلع لسانه للتو , و اكتفى بهز رأسه يمينا و يسارا بمعنى ماذا تريد ؟

_ عايز سجايه .

قالها الصبى صاحب العيون الشبه مغلقه , فتسائل عادل :

_ عايز ايه ؟

ردد الصبى مرة اخرى

_ سجاااايه .

بعينان مذعورتان قال للصبى

_ انا بجد مش فاهم .

_ سجايه , سجايه .

قالها صاحب الملابس البالية بعدما ظهر الضيق على وجهه , و هو يضم السبابه و الوسطه و يطرق بهما فوق شفاه

الغليظة , التى انفرجت فكشفت عن اسنان شدية الصفار تختبئ خلفها ؛ ثم اردف :

_ هو انت مش من مصى !

ابتسم الاخر متفهما ما يريد , ثم اخرج لفافة تبغ و ناوله اياها , و هو متعاطفا مع ذلك البائس الذى يعد من فاقدى حرف الراء , و بعد حديث قصير دار بينهما , علم ان اسمه الاول هو مصطفى , و و علم ايضا هذا المصطفى انه هارب من عائلته , و لا يعلم الى اين يذهب , و انه من سكان العاصمة , فأقترح عليه ان يتبعه ليقوم بتقديمه لـ بعض الاصدقاء , انعقد حاجبى عادل ثم ابتسم و اومأ برأسه ايجابا , ثم اتبعه فى حذر حتى توقف امام مجموعة من الاطفال ,

تتفاوت اعمارهم ما بين (15 الى 19) عام , كانوا احدى عشر صبى و ثلاثة فتيات , جميعهم يرتدون اشباه ملابس لا تختلف كثيرا عن ملابس صاحبهم المدعو مصطفى .

_ ده عادل صاحبى من القاهية .

هكذا قدمه مصطفى اليهم , و هو يضع يده اليمنى فوق كتفه , لكن لم يهتم احد , هناك من امتعض وجهه و بصق بجانبه , و اخر لم يتحمل عناء النظر اليه , و اخرى ابتسمت فى سخرية , و هناك من اشاح بيده فى الهواء , و كأنه يريد ان يقول له (ان المشرحة ليست فى حاجه الى مزيد من القتله) , نظر احدهم و هو الاكبر عمرا الى لفافة التبغ القابعة بين اصابعه فى نهم , ثم بصوت متحشرج

تسائل :

_ معاك سجاير ياض .

اكتفى عادل بهز رأسه , ثم انحنى و اخرج العلبة من حقيبته و ناوله لفافة تبغ , ظهر شبح ابتسامه فوق وجه الاخر و هو يظفر بها , ثم احاطه الجميع من كل اتجاه يطالبون بنصيبهم فى لفافات التبغ المجانية , فقام باعطائهم ما يريدون دون ان تفارق الابتسامه وجهه , و كانت تلك اللفافات بمثابة تأشيرة دخول الى عالمهم - جعلتهم يتقبلون وجوده , و سمحت له بالانضمام الى صفوف هؤلاء المشردين , بدأ يتجول معهم فى كل مكان و يراقب افعالهم المخجله و البشعة بالنسبة له , مثل ممارسة التسول و طلب المال من المارة فى كل مكان , و

سرقة ركاب الترام و القطارات , و استنشاق الغراء , و اشياء اخرى كثيرة لا يمكن ذكرها هنا , لكن الشئ الوحيد الذى اهتز له كيانه و جعله يبكى رغما عنه , هو رؤيتهم يتناولون بقايا الطعام المتناثرة داخل صناديق القمامة , تكفل هذا المشهد المأساوى باثارة مشاعر العطف بداخله , و علم وقتها ان حياته لم تكن يوما بهذا القبح , و ان الانسان بلا عائلة و مأوى ليس الا كائن ذليل فاقد الادمية بمعنى الكلمة ؛ لم يستطيع تحمل هذا المشهد , وجد نفسه يصيح بهم بصوت غاضب مرتفع .

_ ارموا القرف ده حالا .

التفتوا اليه فى دهشه , ثم رمقه كبيرهم بنظرة حادة و حاجب مرتفع , ثم قال :

_ انت بتقول ايه يابنى !

اضاف عادل , و هو يزيل اثار الدموع من فوق وجنتيه , قائلا :

_ انا معايا فلوس , و هجبلكم اكل نضيف , بس سيبوا القرف ده .

ابتسم الاخر من الجهة اليمنى لفمه , ثم مرر كف يده فوق صدره بحركة دائريه , ثم مال برأسه جهة اليمن , و قال :

_ لو كده ماشى .

قفز الجميع مهللين و صاحوا فى نفسا واحدا

_ هيهيهيهيهيهيه .

بعد قليل دولف داخل احدى المطاعم الفاخرة , و بالفعل قام بطلب مجموعة وجبات من الدجاج و اللحوم الطازجة

جيدة الطهى , بينما كانوا هم ينتظرونه فى الخارج بطبيعة الحال , لان مظهرهم لا يؤهلهم لـ دخول مثل هذة الاماكن , او بمعنى ادق لن يسمح لهم احد بالولوج الى الداخل , و كأنها جنة محرم دخولها على الشياطين امثالهم , كانوا ينتظرون فى شغف و فضول لـ تجربة تلك الاطعمة باهظة الثمن بالنسبة لهم , بعد مرور بعض الوقت كانوا يجلسون جميعا بشكل دائرى , حول الطعام الذى كانوا يتناولونه بنهم , مثل مجموعة ضباع يلتفون حول ضحيتهم و يلتهمونها دون رحمة , ينطبق عليهم المثل القائل (الجوع كافر) , كان يترقبهم فى سعادة ممزوجه بعطف , حتى انه لم يتناول سوى قطعة واحدة من وجبة طعامه , لم يتردد لحظة فى تقديمها اليهم , ثم تركهم و ذهب الى متجر

للمأكولات و المشروبات كان بالقرب من مجلسهم , و قام بشراء مجموعة من المشروبات الغازية و علب النيكوتين , و عاد ليقدمها لهم فى حب , كانوا جميعا قد تناولوا الطعام حتى الثمالة , بالطبع سوف تنحت هذة الليلة فى ذاكرتهم حتى الموت , و على الرغم من انهم لم يتقدموا له بالشكر , لكنه لم يكن فى حاجة الى ذلك , بل ان نظرتهم له بوجوه مبتسمه ابتسامة ذات معنى , كانت كافيه بل و اكثر قيمة من الكلمات بالنسبة له , نظر فى ساعة يدة فوجدها تشير الى الواحدة صباحا , سعل فى ارهاق معبرا عن احتياجه الى ممارسة الميتة اليومية .

_ يلا بينا يا عيال , جه وقت النوم .

قالها كبيرهم الذى علم فيما بعد ان اسمه

هو عاصم , بعدما طرق فوق معدته معبرا عن شعوره بالشبع لأول مرة منذ زمن بعيد , ثم انتصب واقفا و بدأ يسير بخطوات بطيئة تليق بجسده البدين , ثم غادر الجميع متبعينه دون ان يتفوه احدهم بكلمة , عدى مصطفى الذى دنا منه و قال :

_ بس انت طلعت ياجل ياض يا عادل .

ابتسم عادل فى رضا , اضاف مصطفى قائلا :

_ يلا بينا عشان نلحقهم .

ثم اصطحبه و غادرا , و اثناء سيرهم تسائل :

_ هو انتوا بتناموا فين ؟

اجاب مصطفى دون ان يلتفت اليه

_ هتعيف لما نوصل .

بعد قليل كانوا يستلقون جميعا فوق رمال احد الشواطئ المفتوحة , ظل عادل متيقظاً لـ بعض الوقت يتأملهم فى دهشة , و يتسائل فى قرارة نفسه كيف يستطيعون العيش بهذة الطريقة ؟ , لكنه فى النهاية استسلم الى رغبة جسده المنهك فى النعاس , قام بتحويل حقيبة ظهره الى وسادة , ثم غط فى نوم عميق , وعلى الرغم من ان حياتهم قاسية لكنه شعر بالاطمئنان بينهم .

اليوم : الثلاثاء

فى الصباح ايقظته الخيوط الذهبية النابعة

من قرص الشمس المعلق فى السماء , و الضوضاء الناتجة عن صياح اصدقاءه المشردين , فرك عينيه ثم وضع كفه الأيمن فوق فمه الذى انفرج على اخره , ثم شعر بجسده يتصبب عرقاً نتيجة الاشعة الشمسية الحارقه , و عندما وضع زراعه فوق الرمال ليستند عليها حتى يستطيع ان يجلس , شعر بحرارتها الى الحد الذى جعله يعيد يده فوق نهده فوراً , بدأ يمسح المكان بنظره يميناً و يساراً , لم يجد احداً منهم , لا يوجد شئ سوى ملابسهم الملقاه فوق الرمال , انتصب واقفاً متتبعاً اصواتهم , فوجدهم يلهون داخل مياه البحر عراه كما ولدتهم امهاتهم , جحظت عيناه على اتساعهما من ذلك المشهد , لكن الثلاثة فتيات كانوا يرتدن ملابسهن كامله , ينظرن من حين

الى اخر الى هؤلاء العراه ثم يتبادلن نظرات ذات معنى و ينفجرن فى الضحك , شعر برغبة فى مشاركتهم هذة اللحظة , لكنه تجاهل ذلك و اكتفى بالمشاهدة عن بعد , جلس فوق حقيبته و اشعل لفافة تبغ و ظل ينفث الدخان فى نهم شاردا بذهنه فى امر ما , بعد قليل افاقه من شروده مصطفى عندما ربت فوق كتفه الأيسر .

_ مالك يا عادل , سيحان فى ايه ؟

نظر اليه عادل بعينان جاحظتان , كان مصطفى لازال عارياً , يرتدى ملابسه ببطئ شديد دون حياء , ابتسم عادل ثم اجاب :

_ مفيش حاجه , انا كويس .

_ منزلتش معانا ليه ؟

_ انا مبسوط كده .

فور انتهاءه من ارتداء ملابسه , قال :

_ عايز سجايه .

لم يستطيع عادل منع ابتسامته , ثم قام باعطاءه ما يريد , اشعل مصطفى لفافة التبغ اثناء جلوسه بجانبه , ثم تسائل :

_ هو انت هيبت من البيت ليه ؟

نظر عادل الى اللا شئ , ثم مرر اصابع يده عبر خصلات شعره المجعد , ثم اطلق تنهيدة طويلة , و قال :

_ بص يا مصطفى , انا امى ماتت و انا عندى سبع سنين , و من يوم ما ماتت مشفتش يوم حلو .

توقف لحظة نفث فيها الدخان حتى تكونت سحابة رمادية كئيبه امامهما , ثم

استأنف حديثه مرة اخرى , اخبره انه الأبن الوحيد لوالديه , و ان والدته كانت هى كل شئ بالنسبة له , و بعد وفاتها انقلبت حياته رأساً على عقب-لأن والده شديد الاهمال لا يستطيع تحمل مسؤليته , هكذا قام بوصفه و اضاف انه يمتلك اطناناً من القسوة , اخبره انه كان يتركه لأوقات كثيرة وحيداً فى المنزل بلا طعام ولا مال لعدة ايام دون ان يعلم مكاناً له , و كم انه كان يعانى من الجوع حتى ينفذ صبره فـ يلجأ الى الجيران ليقترض منهم بعض المال حتى يعود والده , و انه كان يقضى الليل وحيداً حزيناً بائساً مذعوراً , و كان دائما بين اصدقاءه يشعر انه اقل شأناً من الاخرين , ملابسه دائماً متسخه لم يعد لديه من يهتم بنظافته و هيئته و صحته ,

حتى اصدقاءه كانوا يسخرون منه فى بعض الاحيان و كأنه منبوذ من العالم اجمع , حتى ان والده عندما كان يعود فجأة كان يقوم بتوبيخه على تأخره و كأنه يعاقبه على اهماله هو فى الأساس , اخبره ايضا انه تعرض للضرب المبرح مرات عديدة لا حصر لها , و لأتفه الاسباب على يد ذلك الرجل القاسى , الذى من المفترض ان يكن مصدر الامان له , حتى انه تجرأ ذات يوم و قام بتقييده بجانب الشرفة من الخارج - بحكم انهما يقطنان فى الدور الارضى من البناية , ووجه اليه عدة لكمات و ركلات كثيرة دون رحمة , ثم انهال عليه بالضرب باستخدام حزام جلدى سميك , كل ذلك امام عيون المارة و الجيران , الذين تقدم عدد لا بأس منهم و تدخلوا بصعوبة بالغة

لايقاف ذلك الجلاد , لم يكن الامر مخجل بالنسبة له اكثر منه مؤلم - بحكم انه اعتاد ان يشاهد الناس تلك الاهانات الموجهه اليه دوما , ثم دمعت عيناه و اضاف ان والدته عندما كانت على قيد الحياة - كانت تتصدى لكل ذلك و تمنعه بشتى الطرق , حتى اذا وصل الامر الى تحملها الضرب بدلا منه , ثم انهى حديثه قائلا :

_ من يوم ما ماتت , ماتت كل حاجه حلوه .

ربت مصطفى على كتفه مواسيا , ثم قال :

_ ربنا يبحمها يا صاحبى .

ابتسم عادل رغما عنه , ثم قال :

_ يارب.

بعد قليل قام عادل باصطحاب مصطفى و ذهب لشراء وجبة الافطار , كان مصطفى سعيدا جدا بذلك , لكن الامر كان مختلف تماما بالنسبة لعادل , الذى شعر بانه مسؤلا عن هؤلاء البؤساء , و قد قام بينه و بين نفسه باتخاذ قرار نهائى , ينص على انفاق جميع الاموال التى بحوزته فى سبيل اسعادهم , عند عودتهما بعد مرور بعض الوقت استقبلهم اصدقاءهما بوجوه مبتهجة و افواه مبتسمه حتى الأذن , و بطون خاويه متأهبه لاستقبال الطعام ايا كان نوعه , و بالفعل تم الانقضاض على الفريسه و التهامها حتى النخاع , بعد قليل كانوا يستلقون فوق الرمال الساخنه و الطعام يسبح داخل احشائهم - وسط المياه المعدنيه التى كانت تزور معدتهم للمرة

الاولى , فيما بعد كانوا يتسكعون عبر الشوارع و الازقه , يفعلون كل ما يحلو لهم و كل ما يخطر لهم على بال , قاموا بسرقة كرة قدم كان يلهو بها بعض الفتيان , كنوع من الحقد على هؤلاء المرفهين الذين يمتلكون عائلات تهتم لأمرهم , و يقومون بتوفير جميع سبل الراحه لهم , على عكس حالتهم هم التى يرثى لها , و ليس هناك من يتعاطف معهم حتى , بعد مرور بعض الوقت من اللهو بالكرة و عندما شعروا بالملل قام احدهم بتمزيقها مستخدما قطعة زجاج ملقاه على جانب الطريق ثم رحلوا , بعد قليل كانوا يتجولون داخل احد الاسواق مستغلين الزحام على اسوء وجه , قام بعضهم بسرقة بعض الخضروات , و البعض الاخر تمكنوا من سرقة بعض انواع

الفواكه , و احدهم كان يستمتع بالتحرش بالنساء المتكدسه وسط الزحام , و اخر كان يمارس سرقة المال من حقائب المارة , كل ذلك كان يحدث وسط ذهول عادل الذى يترقب جميع المشاهد فى دهشه حقيقيه و عدم رضا عما يحدث , دنا منه مصطفى بوجه مبتسم ثم بسط له زراعه مقدما بعض التفاحات ذات اللون الاحمر القانى لكنه ابى ان يتقبلها , و اخبره انه لن يتناول شيئا تم سرقته , احترم الاخر رغبته متفهما انه لا يشبههم فى شئ ولا ينتمى الى عالمهم بصلة , فجأة توقف الجمع الغفير من البشر المتكدس داخل السوق , ملتفتين الى الصرخه التى اطلقتها احدى النساء , ثم تبعتها بصيحه مرتفعه مرت عبر اذان الجميع .

_ حراااامى .

فورا ظفر مصطفى بيد عادل الذى تجمد مكانه و تصلبت اطرافه , و امره ان يركض فورا , انصاع الى امر صديقه و ركض خلفه فى هلع , بعد قليل التقوا بالاخرين الذين كانوا يضحكون بهستريا فى لا مباله بما حدث , صاح بهم عادل فى غضب قائلا :

_ انتوا بتضحكوا على ايه ! , كان ممكن حد فينا يتمسك .

دنا منه عاصم بوجه متجهم و عينان غاضبتان الى ابعد الحدود , ثم انحنى قليلا حتى اصبحت وجوههما شبه ملتصقه ببعضها - ربما اختلطت انفاسهما , ثم رمقه بنظرة اجراميه , و قال ساخرا :

_ جمد قلبك يا كوكو , متخافش .

ثم صمت قليلا امام عينان عادل اللتان كانتا تتأرجحان يمينا و يسارا مثل سكير , ثم اضاف :

_ لو سمعت صوتك تانى , هفاجأك بالى هعمله فيك .

ثم انصرف عن وجهه , بينما عادل ابتلع ريقه و شهق و زفر فى اطمئنان - و شكر الله انه لم يتعرض الى الاذى على يد ذلك الاحمق , بعد قليل استأنفوا مسيرتهم , بينما عادل و مصطفى كانوا يسيران فى الخلف متتبعين باقى السرب المهاجر .

_ انت مكانك مش معانا .

قالها مصطفى بملامح جاده .

_ عندك حق , بس انا مش هقدر ارجع للضرب و الاهانه تانى .

_ و مين قالك انك مش هتضيب و تتهان تانى , بس من الغييب , صدقنى انت فى نعمه كلنا بنتمناها .

انعقد حاجبى عادل مندهشا , ثم تسائل :

_ يعنى انت تتمنى تبقى مكانى ؟

ابتسم مصطفى بسخرية , ثم اجاب :

_ يايت .

تعجب عادل و قال :

_ بس انتوا بتعملوا الى انتوا عايزينه , من غير ما حد يتحكم فيكم .

_ بيتهيألك , احنا زى كلاب الشوارع , ملناش قيمة ولا مكان ولا عائلة , و محدش حاسس بينا .

_ انتوا صعبانين عليا فعلا , و مستغرب ازاى عايشين كدة !

_ مش مهم , ادينا عايشين .

توقف عادل عن السير و نظر اليه دون ان يرمش و فى حماس قال :

_ انا لما اكبر و يبقى معايا فلوس , هلم كل الناس الى زيكم , و اعملهم مكان كويس يعيشوا فيه , ياكلوا و يشربوا و يتعلموا .

اطلق مصطفى ضحكة ساخرة الى ابعد الحدود , ثم اشار الى مجموعة مطاعم و كافيهات فاخرة , ثم قال :

_ تفتكر الناس الى قاعدين جوه الاماكن دى , بياكلوا و يشربوا و يضحكوا من قلبهم , لو حد فينا راحلهم و طلب منهم اكل مش فلوس هيعملوا ايه ؟

اجاب عادل سريعا دون تفكير

_ طبعا هياكل و يشرب و كمان هياخد فلوس و هو ماشى .

ابتسم الاخر نصف ابتسامة يكسوها السخرية كما يجب ان تكون , ثم قال :

_ عبيط .

_ ليه ؟

_ عشان الشبعان عميه ما يحس بالجعان .

انعقد حاجبى عادل و تسائل :

_ يعنى ايه ؟

_ لما تكبى هتفهم .

هكذا اجاب مصطفى , ثم تنهد و استرسل :

_ المهم انك لازم ترجع بيتك .

_ هفكر فى الموضوع ده .

فى المساء و بعد التهام وجبات رائعه من الاسماك المختلفة - التى بالطبع قام عادل بشرائها و تقديمها لهم بمنتهى الحب و التعاطف , و اثناء سيرهم فى طريق العودة الى ذلك المكان المخصص للنوم بالنسبة لهم , قام احدهم بسرقة حقيبة سيدة عجوز ثم فر هاربا بأقصى سرعة , ظلت المرأة تصرخ طالبه النجدة , فجأة ظهر رجل شرطة قام بملاحقتهم , ظل الجميع يركضون فى خوف شديد و كان عادل فى المؤخرة يكاد قلبه ان يتوقف , كان مصطفى يسترق النظر من لحظة الى اخرى الى الخلف , ليطمئن ان عادل لازال يلحق بهم , و بعد لحظات كان الشرطى اقترب كثيرا من عادل -

الى الحد الذى جعله على وشك ان يظفر به , و كان ذلك شيئا محفزا بالنسبة للشرطى الذى زاد من سرعته , حتى اصبحت المسافة التى بينهما هى خطوة واحدة , و قبل ان يقبض على زراعه , فورا قام مصطفى بتقليل سرعته ثم دفع عادل الى الامام بكل قوته , و اصبح هو بين قبضة الشرطى الذى توقف و انهال عليه بالضرب , بينما هو يتألم كانت عيناه مثبتتان تجاه عادل الذى كان يترقب المشهد من بعيد بعينان غارقه فى الدموع , صاح مصطفى قائلا :

_ اهيب , اهيب , ايجع بيتك .

ركض عادل سريعا بعدما القى نظرة اخيرة على صديقه , كأنه يودعه فى صمت ابلغ من جميع قواعد اللغة , فقام

الشرطى بزيادة ركلاته و لكماته , و هو يصرخ فى وجهه و يوبخه مستخدما جميع كلمات قاموس الالفاظ المشينة , و بعد مرور ما يقارب العشرون دقيقة استطاع عادل ان يلحق بالباقين , لكنه لم يستطيع ان يتمالك اعصابه , و انهال على الفتى الذى تسبب فى ذلك بعبارات اللوم و العتاب , و ظل يوبخه على فعلته التى ادت الى الحاق الاذى بصديقهم
مصطفى , لكن عاصم لن يفوت هذة الفرصة التى جاءته على طبق من ذهب , دنا منه دون ان يتفوه بكلمة كل ما فى الامر انه انقض عليه - و ابرحه ضربا وسط نظرات الجميع , بالطبع حاول عادل ان يدافع عن ذاته , لكنه لم يستطيع نظرا لبنيته الضعيفة مقارنة ببنية عاصم الجسدية الضخمة , فى النهاية

تركه ملقى على الارض يبكى دون توقف , و اثار الضرب بارزة فوق ملامحه الصغيرة يستطيع رؤيتها حتى ضعاف النظر , رمقه عاصم بنظرة شرسة , ثم قام بتعديل ملابسه البالية , ثم قال :

_ مش قولتلك قبل كدة , لو سمعت صوتك تانى , هفاجئك بالى هعمله فيك .

قالها , ثم التفت الى الباقين و بوجه اجرامى اضاف :

_ اى حد هيتكلم من غير اذنى , هيحصله نفس الى حصل للواد ده .

قالها ثم حك رأسه مفكرا , ثم اضاف :

_ احنا لازم نغير المكان الى بننام فيه , عشان الحكومة ممكن تعرف مكانا من الواد مصطفى .

صدق الجميع على كلماته مؤيدين فكرته عن اقتناع لا يعنى له شيئا ؛ فى تلك اللحظة تذكر عادل كلمات مصطفى مرة اخرى .

_ و مين قالك انك مش هتتضيب تانى , بس من الغييب , صدقنى انت فى نعمة كلنا بنتمناها .

_ انت فى نعمة كلنا بنتمناها .

_ انت فى نعمة كلنا بنتمناها .

هكذا ترددت الكلمات داخل عقله حتى ايقن انه يجب ان يعود الى منزله فى اقرب وقت , لكن على الاقل بعد ان تمر هذة الليلة لأنه متعب الى حد كبير و يشعر بالحاجه الى النوم , تحامل على نفسه و انتصب واقفا ثم ظل يزيل الغبار عن ملابسه , ثم نظر اليهم نظرة عتاب

لأنهم لم يقدموا للدفاع عنه و لو محاولة لارضائه , لكنه التمس لهم العذر فى النهاية , فهم مثله تماما لا يستطيعون ردع ذلك الغول البشرى الضخم , فى النهاية تبعهم حتى توقف عاصم قائد القافلة داخل احد الشواطئ , و اخبرهم ان ذلك المكان هو المناسب , فأستجابوا اليه دون اى تعليق , استلقى الجميع ارضا و تمدد عادل فى هدوء بعيدا عنهم قليلا و هو يشعر بالألم يغمره , بعد لحظات كان قد غط فى نوم عميق ؛ بعد قليل كان يركض داخل طريق مظلم الى حد عدم الرؤية , و صوت ضربات قلبه يعلو الى الدرجة التى جعلته يستطيع سماعه يدق مثل الطبل , كانت تتملكه حالة من الفزع و الرعب , و كان يلتفت حوله متأهبا لهجوم اى كائن حى , لا يعلم اين هو ولا

كيف ابتلعه هذا الظلام الدامس دون مقدمات , فجأة توقف عندما وجد هالة من الضوء تتقدم اليه لتحرره من ذلك الظلام الموحش , فى البداية حجب عينيه بزراعه لانه شعر بعيناه تتأذى - لكنه تدريجيا استطاع الرؤية , عندما امعن النظر ارتسمت على وجهه ابتسامة يمكنها ان تضئ محافظة كاملة , كانت امرأة فى غاية الجمال تمتلك عينان خضراوتان يهتز لها الكيان , و ملامح اوربية دقيقة تجعلك تظن انها غير واقعية , و خصلات شعر ذهبية اللون , ووجنتان ينافسان ثمرة التفاح فى الاحمرار .

_ أمى .

قالها عادل بعينان متسعتان على اخرهما

ولا زالت الابتسامة تعتلى وجهه , لم تنبث بكلمة بل ابتسمت ابتسامة تبث البهجة فى النفس , ثم فتحت زراعيها على مصراعيهما , ركض عادل مسافة الاربعة خطوات الفاصلة بينهما بسرعة البرق , ثم ارتمى داخل أحضانها و انفجر فى البكاء , عانقته طويلا و من حين الى اخر كانت تربت على ظهرة , فى حنان جعله يشعر بأن الكسور التى بداخله تلتئم فى التو و اللحظة , عندما هدأ قليلا و دون ان يفارق احضانها قال :

_ وحشتينى اوى يا امى .

مررت اصابعها الرشيقة بين خصلات شعره المجعد برفق , و بصوت ملائكى اذا كان للملائكة صوت قالت :

_ انت كمان وحشتنى جدا يا حبيبى .

_ انا تعبت اوى من ساعة ما سبتينى .

_ انت كبرت و بقيت راجل , لازم تعتمد على نفسك , و تفهم ان الناس الى بنحبهم مستحيل يكملوا معانا للنهاية .

_ و ليه مستحيل ؟

_ عشان كلنا جزء فى قصة بعض , كل واحد فينا ليه دور فى حياة التانى لما الدور بيخلص لازم يفارق , عشان يأدى ادوار تانية فى قصص ناس تانيين .

_ شوفتى بابا بيعمل فيا ايه ! , ده بيكرهنى .

_ مفيش اب بيكره ولاده , كل اب بيتمنى ولاده يكونوا احسن منه , و طبعا بيربيهم بطريقته , و ابوك طريقته كده , لكن هو بيحبك .

_ انتى ازاى ميته ! , و انا شايفك و حاضنك دلوقتى ؟

_ عشان انا عايشه جواك .

فى هذة اللحظة تشبث بجسدها بقوة اكثر و اشتد عناقه , فى هدوء و رقه قالت :

_انت لازم ترجع البيت يا عادل .

شعر بانه ليس فى حاجه الى الحديث - كان هذا العناق هو كل ما يريده فى حياته , دنت من اذنه و همست :

_ عادل .. عادل .

هنا استيقظ من حلمه فوجد واحدة من الثلاثة فتيات المشردين ترقد بجانبه , هى من كانت تحاول ايقاظه , فرك عينيه فى قلق , ثم تسائل :

_ هو فى حاجه حصلت ؟

فورا وضعت اصابعها المتسخه فوق شفتاه فأسكتته , ثم همست فى اذنه :

_ وطى صوتك .

انصاع الى امرها بالفعل و التزم الصمت , و هنا تسلل الى اذنيه صوتا مختلفا عن الاصوات التى اعتاد سماعها , مثل صوت ارتطام الامواج بالصخور , و هدير الرياح , و صوت الشخير الذى ينبعث من جثث اصدقاءه المشردين كل ليلة ليزعج الكائنات البحرية , لكن هذا الصوت كان مختلفا استطاع تمييزه وسط الاصوات السابقه , صوت انين و اهات طفيفه , مما جعله مسح المكان بنظره مهتديا بشعاع القمر الذى يشق الظلام , كانت هناك حركة بين الجثث الغارقه فى

النوم , لكنه لم يستطيع رؤية اكثر من ذلك نظرا الى المسافة التى تفرق بينه و بينهم , تسائل :

_ ايه الصوت ده ! , هو فى حد تعبان ؟

اعتلت وجه الفتاة شبح ابتسامة ساخرة , مكنه ضوء القمر من رؤيتها , ثم قالت :

_ يعنى مش فاهم !

اهتزت رأسه يمينا و يسارا مؤكده عدم استيعابه للأمر , فأضافت :

_ ده عاصم و ساميه , بيهزروا مع بعض .

ارتسمت على وجهه كل علامات عدم الفهم , و تسائل :

_ يعنى ايه ؟

كررت نفس الابتسامة , ثم دنت من اذنه و همست ببعض الكلمات , جحظت عيناه

فجأه , ثم قال :

_ عادى كدة !

هنا اخبرته ان جميع الصبيان يتناوبون عليها هى و الفتاة الاخرى يوميا , لكنهم اليوم مرهقين و متأثرين بما حدث لــ صديقهم مصطفى - لذلك غلبهم النعاس , و بالنسبة للفتاة المدعوه سامية اخبرته انهم لا يجرأون على الاقتراب منها و كأنها قنبلة ستفتك بكل من يحاول ان يعبث بها , و ذلك لانها تعد شيئا خاص بالنسبة لـ عاصم , توقفت عن الحديث للحظة ثم استرسلت , قامت بتقديم عرض مغرى و هو ان تسمح له بالدخول الى عالم المتعة , و خوض تلك التجربة للمرة الاولى بالنسبة له , و مقابل ذلك سيقوم باعطائها مبلغ من المال , تردد فى البداية

لكن الامر راق له و بعد لحظات من التفكير , تم ابرام الاتفاق بنجاح , و فى النهاية شعر بالنشوة حتى النخاع , و فى النهاية غط فى نوم عميق اكثر من المعتاد , و هنا زارته والدته للمرة الثانية فى نفس الليلة , لكنها كانت منطفئه و حزينة الى حد كبير , لم تتحدث معه قط , بل رمقته بنظرة عتاب طويلة ثم اختفت , فى الصباح استيقظ فى وقت متأخر عن المعتاد , علم ذلك عندما نظر الى ساعة يده التى اشارت الى الثانية عشر ظهرا , تمطى فى كسل و شعر ان هناك حالة من الخمول تسيطر على جسده كليا , و عندما قاوم كسله بصعوبة و انتصب واقفا رأهم يلهون فى المياة كعادتهم , لكن هذة المرة شعر بأن لديه رغبة شديدة فى الانضمام اليهم , و بالفعل خلع

ملابسه كلها - اللهم ال من شورت قصير , و بدأ يسير متجها الى مياة البحر فوجد ملابسهم كلها ملقاة فى شكل فوضوى , تخطاها وقفز داخل المياة , و ظل يسبح مستخدما طريقة الكلاب فى السباحة حتى وصل اليهم , القى نظرة على الفتاة التى شاركته الليلة السابقة فأبتسمت له فى خبث , ثم ترقب اصدقاءه فــ راقت له كثيرا الطريقة التى يلهون بها , كان كل ثلاثة اشخاص منهم يشبكون اصابعهم ببعضها و يحملون واحدا منهم ثم يلقون به فى المياة , و بالفعل اشترك معهم فى ذلك , و بعد مرور بعض الوقت فى الاستمتاع و اللهو , وقعت عين احدهم على وشم الصليب القابع فوق معصمه الايمن , لاحظ عادل هذا المشهد لكنه تعجب من علامات الدهشة

المرتسمة فوق وجه ذلك الصبى , لكنه ظل يترقبه بطريقة غير مباشرة , فوجده دنا من الاخرين و همس فى اذانهم بشيئا ما بصوت لم يستطيع سماعه , تأكد انه محور حديثهم هذا عندما نظروا اليه نظرة جماعية ذات مغزى , ثم تظاهروا بعدم الاهتمام و استأنفوا اللهو من جديد , لكن عادل لم يكن مطمئنا على الاطلاق , كما تعلم ان بداخل كلا منا جهاز استشعار ربانى وظيفته ان يقوم بتنبيهنا انه هناك خطر ما , و بالفعل لم يمر كثيرا من الوقت حتى تفاجئ بهم يلتفون حوله صانعين شكل دائرة بأجساد بشرية , على وجوههم ابتسامة لا تتناسب مع الموقف تبعتها ضحكات شريرة .

_ انتوا هتعملوا ايه ؟

هكذا تسائل عادل بوجه شديد الاحمرار و عينان متسعتان على اخرهما , لم يجيبه احد بل قاموا ثلاثة منهم بدفن رأسه فى المياة حاول دفعهم بعيدا عنه مستخدما زراعيه , لكن لم يفلح , بعد عدة ثوانى تركوه فظل يلتقط انفاسه بصعوبة بالغة , ثم ظل يوبخهم مستخدما الفاظ مشينة تعبر عن غضبه , كان رد فعلهم هو ضحكات هيستيرية متتالية , ثم اقتربوا منه مرة اخرى و قاموا بدفن رأسه للمرة الثانية , لكنه هذة المرة ظل يسدد لكمات و ركلات بطريقة عشوائية حتى تركوه رغما عنهم , لانه كان قد اصابت لكماته احدهم فى انفه فتساقطت منها قطرات الدماء الاحمر القانى , و اصابت ركلاته الاثنين الاخرين فى اماكن حساسه لا يمكن ذكرها , ثم ابتعد عنهم بعد ان

اطلق عدة سباب و قام بالبصق تجاههم , غادر المياة و هو يلعنهم و يلعن الليلة التى غادر فيها منزله , كان غاضبا الى حد بعيد , ارتدى ملابسه سريعا ثم حمل حقيبته و قرر ان يغادر , و اثناء سيره توقف فجأة و صفع ناصيته و ابتسم , كان قد جال فى خاطره فكرة راقت له كثيرا , فعاد مرة اخرى لتنفذيها , قام بجمع ملابسهم البالية الملقاه على الشاطئ , ثم ركض هاربا و فى اقرب (صندوق قمامة) قابله , قام بالقائهم ثم اشعل فيهم النار باستخدام قداحته , و ظل يترقبها و النار تلتهمها , شعر بالانتصار فى هذة اللحظة و ابتسم , لكنه بعد قليل اثناء سيره انتابته حالة من الحيرة , و ظل يتسائل لماذا فعلوا بى هذا بعد ما قدمت لهم كل ما املك ؟ , هل اغضبهم كونى

مسيحى ! , ان كان الامر كذلك فأنا لدى الحق فى اختيار ديانتى , لكن كيف يكن الامر كذلك و انا لا اعلم لهم ملة , و حتى هم لا يعلمون , ليس مبررا على الاطلاق ان يفعل المرء هذا بأخيه الانسان لمجرد اختلاف عقيدة او اى شئ اخر , لكن لا اظن ان هناك ديانة تسمح بذلك التنمر فلتكن مشيئتك , قالها ثم ظل يجوب الشوارع و الازقه و هو لا يعلم الى اين سيذهب هذة المرة ؛ بطبيعة الحال ان عقله الصغير الذى لم ينضج بعد , لم يستطيع استيعاب الامر , انهم لن يستطيعون تقدير حب الاخرين لهم مهما فعلوا او قدموا اليهم , و ان هذا المصطفى فاقد الراء كان حالة نادرة , و ان العلماء قد اكتشفوا ان تلامس الجسد ما بين الام و رضيعها من عمر يوم الى

عام و نصف , يؤدى الى اعطاء الثقة للطفل ويجعله يشعر بالأمان , لانه اعتاد على سماع نبضات قلبها اثناء وجوده داخل احشائها و عندما خرج الى الحياة اختفى ذلك الصوت فبدأ يشعر بعدم الامان , و ان اطفال الشوارع و المؤسسات لا يستطيعون تقدير حب الاخرين لهم مهما فعلوا , لأنهم فقدوا تلك المشاعر الحميمة , و ان دائما لديهم نوع من النقص نتيجة لذلك , و يقال ايضا ان اثناء الحرب العالمية الثانية - كانت الامهات يضعن ابنائهن داخل مؤسسات رعاية الاطفال , ليذهبن الى عملهن فى خدمة جنود وطنهم , و انه تم وفاة اعداد كبيرة من هذة الاطفال فى عدة عنابر عدى عنبر واحدا , كانت الممرضة المسؤلة عنه تقوم بحمل الاطفال و تهتم

بهم حتى اثناء تدخينها للفافات التبغ ؛ دعك من ذلك الأن ذهب بطلنا الى احد المطاعم و قام بشراء وجبة طعام جيدة , و جلس فوق احد الارصفه لاحدى الطرق العامة , و تناول وجبته , و ظل يفكر فى امر عودته الى المنزل , و للمرة الاولى اعترف امام نفسه بأنه اخطأ عندما غادر المنزل باحثا عن ذلك الشئ الملعون المسمى الحرية هكذا وصفها , و ايقن ان حياته القديمة ما قبل الرحيل كانت بكل ما فيها من مميزات و عيوب , لم تكن بهذا السوء , و ادرك ان العالم اكثر اتساعا و قسوة مما كان يظن , و انه لكى يستطيع ان يواجه العالم بمفردة يجب ان ينضج اولا - و ان يصبح اكثر حكمة و صلابة .

_ انت كويس يا حبيبى ؟

هكذا قطع حديثه مع ذاته ذلك الصوت الانثوى الهادئ , و عندما رفع وجهه الى الاعلى بعدما كان منتكس الرأس , التمعت عيناه الخضراء عند رؤيته ذلك الوجه الملائكى , كانت فتاة على قدر عالى من الجمال , تمتلك عينان ضيقتان لا يمكنك تحديد لونهما , و وجه قمحى نتيجة تعرضه للشمس , و ملامح اسيوية مدهشة , ترتدى زي مضيفات الطيران و يكسو رأسها حجاب انيق متناسق مع ملابسها يعلوه غطاء رأس , كان عادل ملتزم الصمت رغما عنه - ربما احتراما لهذا الجمال الربانى , فأعادت كلماتها للمرة الثانية دون ملل , و بوجه مبتسم يبث البهجة فى القلوب .

_ انت كويس يا حبيبى ؟

تلعثم قليلا لانه لا يعلم ماذا يقول , ثم اجاب:

_ انا بخير .

_ اسمك ايه يا شاطر ؟

كان صاحب السؤال هو الشاب الوسيم الذى بجانبها , الذى علم فيما بعد انه خطيبها .

_ اسمى عادل .

ابتسم الشاب فظهر اكثر وسامة و كشفت ابتسامته عن اسنان ناصعة البياض , ثم فى مرح اضاف :

_ مالك يا عدول , زعلان ليه كدة ؟

_ عايز اروح بيتنا .

مالت الفتاة بجسدها تجاهه , ثم وضعت كفها فوق رأسه و بوجه حزين تسائلت :

_ هما بابا و ماما عايشين فين ؟

_ بابا عايش , لكن ماما ميتة .

_ يا حبيبى .

قالتها و لم يستطيع احساسها المرهف ان يمنع الدمع من التساقط تلقائيا فوق وجنتيها , ثم فورا عانقته و ضمته الى نهدها فى حنان , فتساقطت الدموع من عينيه رغما عنه بين احضانها , و بعد عناق طويل اصطحباه الى داخل احد المطاعم الفاخرة , ظننا منهما انه فى حاجة الى تناول الطعام , لكنه ابى مفسرا انه قد تناول الطعام منذ قليل , فقامت الفتاة بتحويل الدفة الى متجر فاخر لبيع الملابس , و قامت بشراء بعض الملابس باهظة الثمن له , و تجاهلت تماما رفضه لذلك , على الرغم من انه اخبرها انه

يحمل بعض الملابس النظيفة الجيدة داخل حقيبة ظهره , لكنها نظرت اليه فى ود و حنان فتاة حالمة ترغب فى امتلاك طفل , و قالت برقة يمكنها اذابة صخر .

_ هو انا مش زى ماما .

قالتها ثم قامت بتبديل ثيابه المتسخة بالملابس الجديدة التى تفوح منها رائحتها الخاصة المعتادة , و خلال قيامها بذلك العمل الوطنى بالنسبة لكل الامهات , كان هو يشعر بقمة السعادة التى يمكن ان يشعر بها المرء , و تمنى من صميم قلبه ان تظل بجانبه حتى لحظة خروج روحه الى بارئها , لكن بالطبع ليست كل الامنيات يمكن تحقيقها فى هذة الحياة , كان قد تعلق بها لدرجة انه غار عليها عندما قبل يديها خطيبها الوسيم , معبرا

عن اعجابه بحنان زوجته المستقبلية , فور مغادرتهم المتجر تسائلت :

_ انت حافظ عنوان البيت يا عادل ؟

حك عادل رأسه ثم اجاب :

_ مدينة السلام _ القاهرة .

زمت شفتيها و تأرجحت عيناها يمينا و يسارا فى حيرة .

_ طيب , مش حافظ رقم تليفون مثلا , لاى حد من اقاربك ؟

تحمس عادل الى هذة الفكرة , فأجاب فورا :

_ رقم تلفون البيت , انا كاتبه فى ورقة .

زفرت فى رضا و راحة و هى تضع يداها فوق نهدها , بعد قليل كانوا يقفون امام احدى كبائن التليفونات , التى كانت قابعة

فى الشارع الرئيسى و كانت منتشرة فى ذلك الوقت , دس خطيبها يده فى جيب سروالة , ثم اخرج الكارت الخاص بهذة النوعية من الهواتف و اولجه فى المكان المخصص له , بعد عدة ثوانى جاء صوت متحشرج يقول :

_ الووووو .

هز الشاب رأسه مبتسما فى اشارة لاخبارهما بانه اجاب .

_ السلام عليكم .

قالها الشاب فى ادب , ثم استرسل :

_ حضرتك ليك ابن اسمه عادل ؟

جاء الصوت مهرولا مندفعا مثل قذيفه

_ ايوه ابنى , هو حصله حاجه ؟ , هو كويس ؟ , هو بخير ؟

كانت كلمات الاب سريعه مثل طلقات السلاح النارى , و لم ينتظر حتى يجيبه الشاب , بل استرسل بصوت مبحوح ينم على بكاء قلب المتحدث و عيناه .

_ ابوس ايدك طمنى عليه .

بطريقة مهذبة تحدث الشاب قائلا :

_ اهدأ حضرتك متخافش , هو بخير .

عند خروج اخر حرف من كلمات الشاب , قال الاب سريعا :

_ من فضلك اكلمه , نفسى اسمع صوته .

_ حاضر .. حاضر , متقلقش هو معاك اهو .

تردد عادل قبل ان يتناول السماعه بعينان مذعورتان .

_ الو .

قالها عادل بشفتان مرتجفتان

_ عادل , انت كويس يابنى ؟

_ انا كويس يا بابا .

_ احمدك يارب .

قالها الاب مهللا فى الهاتف , ثم تسائل :

_ مال صوتك يا حبيبى ؟

بعد مرور بعض الثوانى , اجاب عادل بوجه شديد الاحمرار يملئه الذعر

_ انا خايف منك يا بابا .

قالها عادل و انفجر فى البكاء

_ متخافش انا بحبك , انت ابنى , انا مش هضايقك تانى صدقنى , و هعملك كل الى نفسك فيه , متخافش .

لم تفلح كلمات الاب فى تهدئته , فتناول

الشاب السماعة و اكمل المكالمة , بدلا من عادل الذى ارتمى داخل احضان الفتاة , التى لم تستطيع ان تمنع نفسها من البكاء , و ظلت تربت على ظهره مواسيه , بعد مرور ما يقارب العشرون دقيقة - كانوا يقفون امام سيارة النقل الجماعى , التى ستكون وسيلته للعودة الى وطنه القاهرة , بناءا على طلب والده , الذى اخبر الشاب بأنه سيكون فى انتظار ابنه - فى المكان الذى ستتوقف فيه السيارة معلنة عن نهاية رحلتها , و قام بشكره مستخدما جميع عبارات الشكر و الثناء على اخلاقه الحميده , و وعده ان يدعو له بتيسير الحال و حفظ الرب , و انهى حديثه بالتوسل الى الشاب ان يقوم بالاتصال به فى اى وقت يزور فيه العاصمة , عسى ان يقوم بتقديم اى

خدمة كـ نوع من رد الجميل .

_ انتى جميلة اوى .

قالها عادل بوجه ممتلئ بالفرحة

_ انت الى جميل يا عادل .

دمعت عيناها ثم اضافت :

_ هتوحشنى جدا .

ثم عانقته , ظل متشبثا بها و فى داخله كان يدعو الله ان يستمر هذا العناق الى الابد , لكنه السائق الذى صاح بصوته الخشن

_ يلا يا جماعة , العربية كملت .

رمقه عادل فى غضب , و كأنه يريد ان يقول له انتظر ايها الوغد , الم تملك مشاعر بداخل هذة الجثة العملاقه .

_ اسمك حضرتك ايه ؟ , معرفتش اسمك

لحد دلوقتى .

_ اسمى ميادة .

_ احلى اسم فى الدنيا .

قالها , فربتت على وجنتيه , فأضاف :

_ هتوحشينى يا ماما ميادة .

_ و انت اكتر يا حبيب ماما ميادة .

ثم نظر الى خطيبها و سأله :

_ و انت اسمك ايه يا عمو ؟

_ احمد يا حبيب عمو .

وجه عادل سبابته تجاه الشاب و نظر اليه بملامح جادة , و قال له بلغة الامر :

_ خلى بالك منها يا عمو احمد .

ابتسم الشاب , و قال :

_ حاضر يا استاذ عادل .

ثم عانقه مودعا , و صعد عادل الى السيارة ؛ كان السائق قد قام بتشغيل المحرك , و قبل ان يحرك العربة , اوقفته ميادة معتذرة عن تعطيله عن اداء عمله , ثم طلبت منه ان يمنحها لحظة واحدة لا اكثر , فقبل طلبها تقديرا الى رقتها و جمالها , فقامت باعطاء عادل بعض المال , كاد ان يرفض لكنها اجبرته على قبوله , ثم ناولته ورقة صغيرة و اخبرته ان بداخلها رقم هاتف منزلها .

_ ابقى طمنى عليك دايما , كلمنى فى اى وقت .

_ حاضر يا ماما .

عند وقوع هذة الكلمات الساحرة بالنسبة لكل النساء على مسامعها - قامت بطبع قبلة فوق جبينه , ثم بدأت السيارة فى

التحرك لأن سائقها لايروق له تلك القصص الدرامية , لاح لهما عادل بيده مودعا , فبادلاه الشئ ذاته حتى اختفى من مجال بصرهما .

#تمت_بحمد_الله .....